علم الاتصال بين الثبات المعرفي والتحول الرقمي: قراءة إبستيمولوجية في مصير النظريات الاتصالية الكلاسيكية

د. حسين بوصالح

قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة أكلي محند أولحاج – البويرة، h.boussalah@univ-bouira.dz

تاريخ الإيداع: 2025/05/04 **تاريخ المراجعة:** 2025/05/04 **تاريخ القبول:** 2025/06/30

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة إبستيمولوجية نقدية في الأسس النظرية التي يقوم عليها علم الاتصال، في ظل التحولات الرقمية العميقة التي عرفها الفضاء الاتصالي المعاصر. وتُعالج الدراسة أزمة التماسك المعرفي في الحقل الاتصالي من خلال تحليل الخلفيات النظرية للنماذج الكلاسيكية، مثل نموذج شانون وويفر، نظرية التأثير المحدود، ونظرية المجال العام عند هابرماس، في مقابل تحولات الاتصال التفاعلي، وصعود الخوارزميات، وانهيار البنية الخطية للرسالة. وباعتماد المنهج التحليلي–النقدي والمقاربة الإبستيمولوجية، تخلص الدراسة إلى أن علم الاتصال يمرّ اليوم بلحظة مفصلية قد تؤدي إلى قطيعة إبستيمولوجية تؤسس لمرحلة جديدة في بناء المعرفة الاتصالية، تتجاوز النماذج التقليدية نحو تصور أكثر مرونة وتعددًا في الفهم والممارسة.

الكلمات المفاتيح: علم الاتصال، إبستيمولوجيا، تحول رقمي، نظريات كلاسيكية، نماذج اتصالية.

Communication Science between Epistemological Stability and Digital Disruption: An Epistemological Reading of the Fate of Classical Communication Theories

Abstract

This study presents a critical epistemological analysis of the foundations of communication science amid major digital transformations. It revisits classical theories—such as Shannon and Weaver's Model, the Limited Effects Theory, and Habermas's Public Sphere—against new algorithm-driven, interactive dynamics. Using a critical-analytical method, the study highlights the epistemic fragility of the field. It argues that communication science is facing a pivotal moment that may result in an epistemological rupture. This shift could pave the way for a renewed and more flexible theoretical framework.

Keywords: Communication science, epistemology, digital transformation, classical theories, communication models.

المؤلف المرسل: د. حسين بوصالح، h.boussalah@univ-bouira.dz

- **توطئة (مقدّمة):**

لم يعد الاتصال، في السياق المعاصر، مجرد عملية تقنية لنقل الرسائل بين مرسل ومستقبل، بل أصبح نظامًا معرفيًا وثقافيًا مركّبًا يتفاعل مع تطورات تكنولوجية عميقة، ويعيد تشكيل الواقع الاجتماعي والرمزي للفرد والمجتمع. لقد عرف العالم، منذ بداية الألفية الثالثة، طفرة اتصالية غير مسبوقة تمثلت في الثورة الرقمية، والانتقال إلى الذكاء الاصطناعي، وبروز الخوارزميات التنبؤية، وتفكك الوسيط، وتصاعد الإعلام الشبكي، وهي تحولات لم تمس فقط البنية التقنية للاتصال، بل مست جوهر العملية الاتصالية نفسها، مما يستدعي إعادة النظر في النماذج التفسيرية التي ظلّت سائدة لعقود.

ضمن هذا السياق، يطرح الباحثون اليوم تساؤلات جوهرية حول مدى صلاحية النظريات الاتصالية الكلاسيكية –مثل نموذج شانون وويفر، نظرية التأثير المحدود، ونظرية المجال العام عند هابرماس– لفهم الواقع الاتصالي الجديد، خاصة في ظل تصاعد دور الذكاء الاصطناعي، وتغيّر علاقة الإنسان بالرسائل الإعلامية، وانهيار التسلسل الاتصالي التقليدي، إذ لم تعد الحدود بين المرسل والمتلقي، بين المحتوى والمحتوى المولَّد تلقائيًا، واضحة أو مستقرة، بل دخلنا مرحلة من السيولة النظرية والمفاهيمية تتطلب مساءلة معرفية عميقة.

من هنا تأتي أهمية المقاربة الإبستيمولوجية، بوصفها آلية لفحص صلاحية النماذج والنظريات من حيث شروطها المعرفية، وقواعدها التفسيرية، ومنطقها الداخلي، فهل ما زال علم الاتصال يحتفظ بثباته النظري؟ أم أننا نشهد لحظة قطيعة إبستيمولوجية تفرض مراجعة شاملة لمنظومته المعرفية؟ وهل النظريات التي تأسس عليها هذا العلم قادرة على احتواء واقع الاتصال الشبكي، أم أنها أصبحت تنتمي إلى "أرشيف معرفي" تجاوزه الزمن؟

1- إشكالية الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى مساءلة علم الاتصال من زاوية إبستيمولوجية، بفحص مدى تماسك منظومته النظرية في ظل التحولات التي فرضها السياق الرقمي المعاصر، فإذا كان علم الاتصال قد تأسس في منتصف

القرن العشرين على خلفية تطورات في اللسانيات، والسوسيولوجيا، والتحليل النفسي، فإن السياقات المعاصرة باتت تفرض معايير جديدة للفهم، أبرزها التداخل بين الإنسان والآلة، وتفكك البنية الاتصالية التقليدية، وصعود الإعلام التشاركي، وتحكم الخوارزميات في تدفق المعلومات ومن خلال هذه الدراسة تم صياغة الإشكالية على النحو التالي: إلى أي مدى يمكن للنظريات الاتصالية الكلاسيكية أن تظل صالحة لتفسير المشهد الاتصالي الجديد، في ظل تحولات تكنولوجية ومعرفية عميقة؟

2- تساؤلات الدراسة:

- ما هي الأسس الإبستيمولوجية التي تأسس عليها علم الاتصال؟
- ما طبيعة التحولات التي طرأت على الفعل الاتصالي في العصر الرقمي؟
- إلى أي مدى يمكن القول إن النظريات الكلاسيكية للاتصال ما تزال صالحة؟
- ما ملامح الإبستيمولوجيا الجديدة الممكنة لعلم الاتصال.

3- أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تقدم قراءة نقدية إبستيمولوجية لعلم الاتصال في سياق متحول، وتسعى إلى تجاوز الطروحات الوصفية باتجاه مساءلة البنى المعرفية المؤطرة للعلوم الإنسانية، كما تمثل مساهمة في تطوير الأدبيات النظرية لعلم الاتصال وتوجيه الباحثين نحو نماذج تفسيرية جديدة.

4- أهداف الدراسة:

- توضيح الأطر الإبستيمولوجية المؤسسة لعلم الاتصال.
- تحليل أثر التحولات الرقمية على المفاهيم والنماذج الاتصالية.
- تقييم صلاحية النظريات الكلاسيكية في ضوء التغيرات الحديثة.
- اقتراح ملامح أولية لإبستيمولوجيا اتصالية جديدة تستوعب الواقع الرقمي.

5- منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على المنهج التحليلي–النقدي بوصفه أحد المناهج النوعية المعتمدة في الدراسات النظرية، والذي يقوم على تحليل البُنى المفاهيمية للنظريات والنصوص، ومن ثم تفكيكها ومساءلتها نقديًا في ضوء معطيات جديدة. ويهدف هذا المنهج إلى تجاوز الطرح الوصفي أو التراكمي للمعرفة نحو مقاربة تأويلية تعيد بناء الفرضيات والمقولات النظرية وفق منظور عقلاني نقدي.

وقد تم تكييف هذا المنهج مع طبيعة الموضوع الذي ينتمي إلى حقل الإبستيمولوجيا الاتصالية، وهي زاوية تفرض ضرورة العودة إلى المرجعيات المعرفية التي تأسس عليها علم الاتصال، بهدف فحص مدى تماسكها، واتساقها الداخلي، وقابليتها للتطور.

ينسجم اختيار هذا المنهج مع الطابع التأصيلي للمقال، الذي لا يسعى إلى دراسة الظاهرة الاتصالية من حيث تمظهراتها الاجتماعية أو التكنولوجية فحسب، بل من حيث أسسها المعرفية والنظرية. كما تعتمد الدراسة على المقاربة الإبستيمولوجية باعتبارها منهجًا فلسفيًا يُعنى بمساءلة شروط إنتاج المعرفة، ويستهدف الكشف عن الثغرات المفاهيمية والافتراضات الضمنية في النماذج المعتمدة. وقد أتاح هذا التوجه تحليلاً مقارنًا بين النظريات الكلاسيكية في الاتصال (مثل نموذج شانون وويفر، نظرية المجال العام، التأثير المحدود...) والسياقات الرقمية المعاصرة التي قلبت موازين الفعل الاتصالي.

ويسمح هذا التزاوج بين التحليل والنقد والإبستيمولوجيا بتقديم قراءة عميقة تتجاوز حدود التقسيمات التقنية للنظرية والمنهج، نحو بناء تصور متكامل يعيد فهم علم الاتصال كحقل يتأثر بالتحولات المعرفية والتكنولوجية المتسارعة.

6- مجال الدراسة:

يتركز مجال الدراسة في الخطاب العلمي الاتصالي الكلاسيكي، مع مقارنته بالتطورات التي فرضتها وسائط الإعلام الجديد. ويشمل التحليل نماذج كلاسيكية مثل نظرية شانون وويفر، ونظرية التأثير المحدود، ونظرية المجال العام، والمقاربات البنائية.

7- مصطلحات الدراسة:

1- الإبستيمولوجيا:

يقصد بالإبستيمولوجيا (Epistemology) ذلك الفرع من الفلسفة الذي يهتم بدراسة شروط إنتاج المعرفة العلمية، وحدودها، ومنطقها الداخلي، ومناهجها، كما يعنى بفهم طبيعة العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعرَف، وتُعالج الإبستيمولوجيا في السياق المعاصر مسألة مشروعية العلوم، ومدى تماسكها النظري، وقابلية نماذجها للتعميم أو التجاوز، ويعد غاستون باشلار من بين أبرز المنظرين في هذا المجال، حيث يرى أن المعرفة

العلمية لا تُبنى بشكل خطي، بل تتقدم عبر القطيعة مع المعارف السابقة، أي أن كل علم حقيقي هو علم "ضد المعرفة السابقة" كما عبّر في مؤلفه الشهير تكوين العقل العلمي.

2- علم الاتصال:

علم الاتصال هو فرع من العلوم الإنسانية والاجتماعية يُعنى بدراسة عمليات تبادل المعاني والرموز والمعلومات بين الأفراد والمجموعات، كما يدرس القنوات والوسائط والتأثيرات المرتبطة بهذه العمليات. نشأ هذا العلم في

منتصف القرن العشرين ضمن سياقات أمريكية بالأساس، مستفيدًا من علوم متعددة مثل اللسانيات، وعلم النفس، والسوسيولوجيا، والأنثروبولوجيا. غير أن طبيعته التداخلية جعلت البعض يشكك في استقلاليته المعرفية، ما يطرح دائمًا سؤال إبستيمولوجيا هذا العلم. ومن التعريفات الواسعة لعلم الاتصال ما قدمه دومينيك وولتون Dominique Wolton الذي يرى فيه "مجمل الأفعال الرمزية التي تهدف إلى إحداث معنى مشترك في سياق ثقافي واجتماعي محدد.

3- النموذج الاتصالي:

النموذج الاتصالي هو تمثيل رمزي أو رياضي يُستخدم لفهم أو تفسير آلية حدوث الفعل الاتصالي بين المرسل والمتلقي، مرورًا بالرسالة والوسيط والتغذية الراجعة، وقد ظهرت أولى هذه النماذج مع شانون وويفر سنة 1949 في إطار نظري للاتصال كعملية خطية تنطلق من مرسل وتنتهي بمتلقٍ. غير أن هذا النموذج واجه انتقادات لاحقة من تيارات عدة، خاصة التيارات التأويلية والبنيوية، التي أكدت أن الاتصال ليس مجرد نقل معلومات، بل هو إنتاج للمعنى ضمن سياقات ثقافية واجتماعية.

4- التحول الرقمي:

يشير التحول الرقمي إلى سلسلة التغيرات الجذرية التي طرأت على مختلف مناحي الحياة الإنسانية نتيجة انتشار تكنولوجيا المعلومات والاتصال، لا سيما مع ظهور الإنترنت، والذكاء الاصطناعي، ومنصات الإعلام التفاعلي. وقد غيّر هذا التحول من طبيعة الفعل الاتصالي ذاته، حيث لم يعد المتلقي سلبيًا، بل تحول إلى فاعل مشارك في إنتاج المحتوى وتداوله. كما تفككت العلاقة الكلاسيكية بين المرسل والوسيط، ما أدى إلى ما يُعرف بالـ التموضع

الشبكي للاتصال، وهي ظاهرة تحدث عنها مانويل كاستلز بتوسع في أطروحته حول "مجتمع الشبكة.

1– الإبستيمولوجيا وعلم الاتصال: قراءة في الخلفيات التأسيسية:

يُعد علم الاتصال من العلوم الإنسانية التي نشأت في سياق خاص، متأثرًا بجملة من التيارات النظرية والمنهجية التي امتدت من اللسانيات البنيوية، إلى السوسيولوجيا الوظيفية، إلى نظريات الإعلام الأمريكية في سياق الحرب الباردة، غير أن هذا التعدد في المنابع النظرية جعله علمًا هشًّا من الناحية الإبستيمولوجية، ما يطرح تساؤلات حول تماسكه كعلم مستقل، وقدرته على مجابهة التحولات المفاهيمية والتقنية التي يشهدها الحقل الاتصالي في الزمن الرقمي.

1-1- في مفهوم الإبستيمولوجيا ووظيفتها النقدية:

تُعرّف الإبستيمولوجيا –بحسب غاستون باشلار– على أنها دراسة نقدية للمعرفة العلمية من حيث مصادرها وشروطها وأساليبها وحدودها. فهي لا تكتفي بوصف المناهج، بل تتجاوز ذلك إلى مساءلة شروط تشكّل النظرية

وشرعيتها وقد أكد باشلار أن التقدم العلمي لا يتم بتراكم المعارف، بل بـ"القطائع الإبستيمولوجية" التي تقطع مع أنماط التفكير القديمة لصالح نماذج تفسيرية جديدة وفي هذا الإطار، يرى كارل بوبر أن علمية أي نظرية تقاس بقابليتها للتكذيب (Falsifiability)، مما يجعل من الإبستيمولوجيا أداة للتمييز بين المعرفة العلمية والمعرفة غير العلمية، وهذا المنظور مهم عند فحص علم الاتصال، خاصة حين نعلم أن العديد من نظرياته الأولى (كالتأثير المحدود) تستند إلى فرضيات سوسيولوجية أكثر منها نماذج قابلة للاختبار التجريبي.

1-2- جذور علم الاتصال بين التعدد المنهجي والهشاشة الإبستيمولوجية:

يعود ظهور علم الاتصال كمجال مستقل إلى منتصف القرن العشرين، وقد ارتبط خصوصًا بتطور وسائل الإعلام الجماهيري في الولايات المتحدة، وتحديدًا بعد الحرب العالمية الثانية. وقد تموضع هذا الحقل بداية في مفترق طرق بين اللسانيات البنيوية (رومان جاكبسون)، والنفس الاجتماعي (فرويد، لازارسفيلد)، والنظريات الاجتماعية (بارسونز)، ما جعله في الأصل علمًا تداخليًا (interdisciplinaire) يفتقر إلى مرجعية إبستيمولوجية واحدة.

يرى برنار مييج (Bernard Miège) أن علم الاتصال لم يستطع أن ينتج مفاهيمه الخاصة بشكل متماسك، بل ظل "علمًا في حالة تبعية معرفية" يستورد نظرياته من حقول أخرى دون أن يخضعها لتماسك إبستيمولوجي داخلي. في المقابل، يدعو دومينيك ولتون إلى تجاوز الرؤية التقنية للاتصال باعتباره مجرد نقل للمعلومة، نحو فهمه كبنية ثقافية ومعرفية تشترط السياق والتأويل، ما يجعل من الإبستيمولوجيا أداة مركزية لإعادة بناء مفاهيم هذا العلم.

1-3- علم الاتصال كعلم غير مكتمل إبستيمولوجيًا:

إن من مظاهر هشاشة البنية الإبستيمولوجية لعلم الاتصال ما يلي:

1- تعدد المناهج وتضاربها: فنجد من جهة مناهج تجريبية كمية (مثل تحليل المحتوى، والمسح الإعلامي)، ومن جهة أخرى مقاربات كيفيّة (تأويلية، وسيميائية، ونقدية)، مما يصعّب من توحيد الإطار المعرفي.

2- غياب تعريف موحّد لمفهوم الاتصال: هل هو عملية إرسال معلومات؟ أم بناء رمزي للمعنى؟ أم أداة تأثير سياسي؟ كل مقاربة تعرّفه بطريقة مختلفة.

3- إخفاق النماذج الكلاسيكية في الإحاطة بالتطورات الجديدة: مثل نموذج شانون وويفر، الذي يَختزل الاتصال في مرسل ورسالة ومتلقٍّ، لا ينسجم مع الاتصال الشبكي المعاصر الذي يتضمن ديناميكيات متفاعلة وتبادلية يصعب ضبطها ضمن نموذج خطي.

من هنا، فإن الحاجة إلى مساءلة إبستيمولوجية لا تتعلق فقط بالتنظير المجرد، بل بتقييم فعلي لصلاحية هذا العلم في مواكبة التحول الرقمي وواقع الإعلام الذكي والخوارزمي.

2- التحول الرقمي واتساع الفجوة بين النظرية والممارسة الاتصالية:

لقد شكل التحول الرقمي –بكل ما يحمله من تحولات تقنية ومعرفية– تحديًا كبيرًا للمنظومات النظرية التقليدية في علم الاتصال، إذ لم يعد من الممكن قراءة الظاهرة الاتصالية بمنطق الخطيّة والتأثير الثابت، بل بات المشهد الاتصالي المعاصر يتميز بالتفاعلية، واللاتمركز، وتعدد مستويات الفاعلين، سواء كانوا أفرادًا، أو مؤسساتٍ، أو حتى خوارزميات غير بشرية.

2-1- من الإعلام الجماهيري إلى الاتصال الشبكي:

تقوم معظم النظريات الكلاسيكية في الاتصال على نموذج الإعلام الجماهيري، حيث توجد جهة إنتاج محددة (مرسل) وجمهور متلق تُوجَّه إليه الرسائل عبر وسيط جماعي (راديو، وتلفزيون، وصحافة). لكن مع التحول إلى الإعلام الرقمي، تغير هذا النسق جذريًا، إذ أصبحت الوسائط الجديدة لا تقتصر على البث، بل تسمح للمستخدم بالمشاركة، والتفاعل، وإعادة التوجيه، بل وصناعة المحتوى ذاته.

لقد تحدث مانويل كاستلز عن هذا التحول بوصفه "انتقالًا من الاتصال الجماهيري إلى الجماهيرية الذاتية " (mass self-communication)، حيث لم يعد الجمهور سلبيًا أو متجانسًا، بل أصبح كيانًا متشظّيًا يمارس دورًا فاعلًا في إنتاج وتوجيه المعلومة وهذا التحول يُضعف صلاحية نظريات مثل "التأثير المحدود"، أو "الوسيط هو الرسالة" لماكلوهان، التي تفترض أن الوسيط يتحكم بالكامل في المعنى.

2-2- لخوارزميات والذكاء الاصطناعي: وسيط جديد يهدد المفاهيم:

يتم الاتصال السياقات التقليدية، عبر وسيط بشري أو مؤسسة إعلامية واضحة. أما اليوم، فإن الخوارزميات أصبحت تقوم بدور الوسيط، حيث تحدد ما نراه ونقرأه عبر الترشيح الآلي (Algorithmic Filtering) بناءً على بياناتنا وسلوكنا الرقمي. وهو ما يُدخل الاتصال في مستوى جديد من التحيز والتحكم، دون أن يكون للمستخدم وعي كافٍ بذلك الخطر المعرفي وهنا لم بعد الوسيط محايدًا، بل أصبح فاعلًا غير مرئي يصنع المعنى ويوجهه وفق منطق تجاري أو سياسي أو أيديولوجي. وهذا يعيد طرح سؤال جوهري: هل ما زال يمكن الحديث عن "رسالة اتصالية" في ظل المحتوى المُولَّد آليًا؟، أو عن "مرسل" في ظل هيمنة الأنظمة الذكية؟ هذه الأسئلة تقوض النماذج التي بُني عليها علم الاتصال، وتدفع نحو إعادة النظر في مفاهيم مثل الرسالة والمتلقي والوسيط.

2-3- سقوط نموذج التأثير الأحادي وتعدد الفواعل:

ارتكزت العديد من النظريات الاتصالية الكلاسيكية على فرضية التأثير الأحادي والمباشر، كما في نظرية "الرصاصة السحرية" أو "الإبرة تحت الجلد"، التي تفترض أن الرسائل تؤثر في المتلقي بشكل مباشر وخالٍ من المقاومة. لكن في ظل منصات مثل تويتر أو يوتيوب أو تيك توك، باتت الرسائل تعيد إنتاج ذاتها عبر التعليقات، والترندات، والريمكس، أو حتى التزييف العميق (Deepfake)، ما يجعل فعل التأثير متعدد المستويات والفواعل.

هذا التعقيد في العلاقة بين المرسل والمتلقي، وتداخل مستويات التأويل، يفرض مراجعة لمفاهيم كلاسيكية مثل "التحكم في الرأي العام"، أو "الجدول الزمني للأجندة"، التي لم تعد صالحة لتفسير ديناميكيات الاتصال الشبكي التفاعلي.

2-4- ملامح القطيعة الإبستيمولوجية في الحقل الاتصالي المعاصر:

إن مجموع هذه التحولات يدفعنا إلى التساؤل عن مدى استمرار صلاحية المنظومات النظرية التي تأسس عليها علم الاتصال، فالتغير لا يتعلق فقط بأدوات القياس، بل ببنية المفاهيم نفسها. فحين تتغير مفاهيم "الوسيط"، و"المعنى"، و"الجمهور"، فإن النموذج التفسيري ذاته يصبح بحاجة إلى مراجعة جذرية.

هنا نقترب من أطروحة باشلار حول "القطيعة الإبستيمولوجية" كشرط لتجاوز المعرفة القديمة، وبناء نموذج معرفي

جديد ينطلق من صلب الواقع لا من التراكم النظري الجامد وربما نكون اليوم في علم الاتصال أمام لحظة مماثلة، حيث يُحتِّم التحول التكنولوجي والمعرفي إحداث قطيعة إبستيمولوجية تُعيد تأسيس الحقل من جديد.

3- مصير النظريات الاتصالية الكلاسيكية في ظل التحولات الرقمية: مراجعة إبستيمولوجية:

لقد شكلت النظريات الاتصالية الكلاسيكية حجر الأساس في بلورة الحقل العلمي للاتصال خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وأسهمت في تأطير البحث الاتصالي ضمن مقاربات تجريبية أو تحليلية مستقاة من الحقول المجاورة كاللسانيات، وعلم النفس، والسوسيولوجيا. إلا أن التحولات التي أتى بها العصر الرقمي، خاصة مع بروز الاتصال الشبكي والذكاء الاصطناعي، تطرح تحديات إبستيمولوجية كبرى لهذه النظريات، سواء على مستوى المفاهيم أو المناهج أو الغايات. وفيما يلي نقف عند أبرز هذه النظريات:

3-1- نظرية شانون وويفر (Shannon & Weaver): نهاية النموذج الخطي؟

تُعتبر نظرية "النقل الخطي للمعلومة" التي صاغها كلود شانون ووارن وويفر عام 1949 من أولى محاولات بناء نموذج علمي للاتصال. يقوم هذا النموذج على خمسة عناصر أساسية: المرسل، والرسالة، والوسيط، والمستقبل، والتغذية الراجعة، مع اعتبار التشويش كعنصر معيق. غير أن هذا النموذج يتأسس على بنية خطية ميكانيكية للاتصال، لا تراعي البعد التأويلي للمعنى ولا السياق الثقافي والاجتماعي. وأصبح الاتصال في السياق الرقمي، متعدد الجهات (Many-to-Many)، وتبادلي، وسياقي بدرجة عالية. كما أن الوسيط أصبح خوارزميًا وليس بشريًا، والرسالة ليست ثابتة بل ديناميكية وقابلة لإعادة التكوين في كل لحظة. وعليه، فإن نموذج شانون وويفر، وإن كان مهمًا تاريخيًا، لم يعد كافيًا لتفسير ممارسات الاتصال في المنصات التفاعلية الحديثة.

3-2- نظرية التأثير المحدود (Lazarsfeld): عندما يفقد الوسيط سلطته:

تقوم هذه النظرية، التي تعود إلى لازارسفيلد وكاتز إلى أربعينيات القرن الماضي، على فرضية أن وسائل الإعلام لا تؤثر مباشرة على الجمهور، بل عبر "قادة رأي" ينقلون التأثير بتوسط اجتماعي، فيما يُعرف بـ "نموذج التدفق ذي الخطوتين".

لكن مع بروز شبكات التواصل الاجتماعي، وتراجع سلطة الوسائط التقليدية، لم يعد "قادة الرأي" فاعلين دائمين كما في السابق، بل أصبح التأثير موزعًا، وعابرًا، ومتغيرًا لحظة بلحظة، بفعل الترندات والهاشتاغات والبث الحي. كما أن المستخدمين أصبحوا هم أنفسهم منتجي ومروجي الرسائل، مما يضعف الأساس الذي قامت عليه نظرية التأثير المحدود، ويفرض إعادة تعريف مفهوم "السلطة الاتصالية".

3-4- نظرية ماكلوهان (McLuhan): الوسيط لم يعد هو الرسالة:

اشتهر مارشال ماكلوهان بمقولته الشهيرة "الوسيط هو الرسالة"، ليُظهر كيف يؤثر نوع الوسيط المستخدم في تشكيل طبيعة الرسالة والمعنى المتولد عنها، وقد بيّن في تحليله كيف أن الوسائط ليست مجرد أدوات، بل أنساق ثقافية تُعيد تشكيل الإدراك والوجود الإنساني.

لكن في العصر الرقمي، لم يعد الوسيط واضحًا أو ماديًا، بل أصبح غير مرئي في كثير من الأحيان (كالخوارزميات، وأنظمة التوصية، والذكاء الاصطناعي...). كما أن حدود الوسيط انهارت لصالح بيئات اتصالية مركبة لا يمكن اختزالها في وسيط واحد. وهنا يطرح السؤال: هل لا تزال مقولة ماكلوهان صالحة؟ أم أن الوسيط أصبح هو الواقع ذاته وليس فقط الرسالة؟

3-5- نظرية هابرماس والمجال العام: هل ما زالت الفضاءات الرقمية مجالًا عموميًا؟

قدّم يورغن هابرماس مفهوم المجال العام بوصفه فضاءً عقلانيًا يتفاعل فيه المواطنون بحرية لمناقشة الشأن العام، ويشكلون من خلاله الرأي العام السياسي، وقد ارتبط هذا التصور بوسائل الإعلام التقليدية والصحافة كمؤسسات للتداول العمومي.

غير أن الفضاء الرقمي، على الرغم من اتساعه، لا يحقق دائمًا شروط العقلانية والمساواة، بل يكرّس أحيانًا الانعزال المعلوماتي (Echo Chambers)، والتلاعب بالخوارزميات، وهيمنة المنصات الخاصة على الفضاء العمومي. وهو ما يفرغ المجال العام الرقمي من مضمونه التداولي، ويجعل من نظرية هابرماس غير قادرة على الإحاطة بهذه الفجوة بين المثالية النظرية والتطبيق الفوضوي الرقمي.

يتبين من مراجعة هذه النظريات أن التحول الرقمي لم يُحدث فقط تعديلًا في الأشكال الاتصالية، بل زعزع الأسس المعرفية التي بُني عليها علم الاتصال. وهذا يتطلب، من منظور إبستيمولوجي، إما إعادة تأويل هذه النظريات وتكييفها مع الواقع الجديد، أو تجاوزها نحو نماذج أكثر مرونة وشمولًا للفضاء الرقمي المعاصر.

4- نحو إبستيمولوجيا جديدة لعلم الاتصال: مقترح تأصيلي:

إن ما استعرضناه من تحولات رقمية، وتحديات نظرية، ومحدودية النماذج الاتصالية التقليدية، يؤكد أن علم الاتصال بحاجة ملحّة إلى مراجعة إبستيمولوجية شاملة، لا تقف عند حدود نقد النماذج القديمة، بل تتجه نحو اقتراح تصور جديد لموضوع العلم، ووحداته المفاهيمية، ومناهجه، ووظائفه، بما يتماشى مع طبيعة الاتصال المعاصر الذي أصبح متعدد الأبعاد، تفاعليًا، لا مركزيًا، بل ومعتمدًا على الذكاء الاصطناعي.

4-1- من "النقل" إلى "بناء المعنى": إعادة تعريف الاتصال:

من أبرز المآزق التي تواجه علم الاتصال اليوم هو استمرار بعض النماذج التفسيرية في التعامل مع الاتصال كـ"نقل للرسالة"، في حين أن الواقع الجديد يُحيل إلى بناء تشاركي للمعنى ضمن فضاءات تفاعلية، تؤثر فيها الهوية، واللغة، والرمز، والصورة، والخوارزمية.

وهنا يصبح من الضروري تجاوز النموذج الوضعي التجريبي نحو نماذج تفسيرية تتبنى الطابع التأويلي للاتصال، وترتكز على تعدد المعاني لا على أحادية الدلالة. وقد أشار دومينيك ولتون إلى هذا التحول حين أكد أن "الاتصال ليس اتفاقًا، بل هو اختلاف يُدار بشكل رمزي".

4-2- ضرورة إعادة بناء المفاهيم التأسيسية:

لكي يتمكن علم الاتصال من استعادة تماسكه المعرفي في ظل هذه التحولات، يجب إعادة التفكير في مفاهيمه الأساسية، وعلى رأسها:

- الرسالة: لم تعد وحدة ثابتة بل أصبحت دفقًا مفتوحًا (Flow) من المعاني القابلة للتحوير وإعادة التوجيه.
- الوسيط: لم يعد جهازًا تقنيًا، بل نظامًا خوارزميًا معقدًا يتفاعل مع المستخدم ويوجّه سلوكه.
- الجمهور: لم يعد متلقيًا سلبيًا بل أصبح منتجًا للمعنى، وفاعلًا في توجيه الرأي العام عبر أدوات تشاركية.

وهذا يعني أن المفاهيم القديمة يجب ألا تُستعاد كما هي، بل يُعاد إنتاجها بمفردات معرفية جديدة تستجيب لواقع "الاتصال السائل".

3-4- نحو تكامل منهجي جديد:

في ضوء هشاشة الحدود بين الفضاء الواقعي والافتراضي، وبين الذاتي والآلي، لم تعد المناهج الاتصالية التقليدية (كالتحليل الكمي، والمسح، ودراسات الجمهور...) قادرة وحدها على استيعاب الظاهرة الاتصالية الرقمية. لذا ينبغي تبني مقاربات منهجية هجينة تجمع بين:

- المقاربات الكيفية التأويلية (مثل تحليل الخطاب، وتحليل السيميولوجيا الرقمية).
- والمقاربات التكنولوجية (مثل تحليل الخوارزميات، وتتبع البصمة الرقمية).
- والقراءات الإبستيمولوجية التي تضع المسلّمات المعرفية تحت المساءلة.

بهذا، يصبح علم الاتصال علمًا نقديًا قائمًا على فهم كيف تُبنى الحقيقة الاتصالية، لا كيف تُنقل فقط.

4-4- الاتصال في زمن الذكاء الاصطناعي: تحديات المستقبل:

مع تصاعد الذكاء الاصطناعي التوليدي (Generative AI) مثل ChatGPT، أصبح من الممكن إنتاج خطاب اتصالي كامل بدون تدخل بشري. وهو ما يُحدث ثورة في تمثلاتنا للمرسل والمتلقي، ويفرض سؤالًا معرفيًا جديدًا: هل ما زال الاتصال نشاطًا إنسانيًا؟ أم أصبح واقعًا هجينيًا (Hybrid) يُنتَج ضمن تفاعلات إنسان–آلة؟ هذا يدفع نحو مراجعة فلسفية لمفهوم "الفاعلية" (Agency) في الاتصال، وهي مسألة إبستيمولوجية من الطراز الأول، ترتبط بإعادة صياغة جوهر الحقل ذاته.

خاتمة الدراسة:

لقد بيّن هذا المقال من خلال مقاربة إبستيمولوجية نقدية أن علم الاتصال، كما تأسس في القرن العشرين، يواجه اليوم تحديًا معرفيًا عميقًا يتمثل في فقدان النماذج الكلاسيكية لفاعليتها التفسيرية أمام تحولات كبرى عرفها الواقع الاتصالي، وفي مقدمتها:

- صعود الذكاء الاصطناعي،
- انكسار النموذج الخطّي للاتصال،
- تشظّي الجمهور،
- وتحوّل الوسيط من جهاز مادي إلى خوارزمية موجِّهة للسلوك والمحتوى.

ومن خلال فحص النماذج الكبرى (شانون وويفر، ولازارسفيلد، وماكلوهان، وهابرماس)، اتضح أن هذه النظريات، رغم قيمتها التاريخية، لم تعد قادرة على احتواء بنية الاتصال الشبكي المعاصر، مما يستدعي بناء نموذج معرفي جديد يتجاوز النزعة الخطية والميكانيكية في فهم الظاهرة الاتصالية.

. توصيات الدراسة:

1- الانفتاح على المقاربات الإبستيمولوجية النقدية في تحليل الممارسات الاتصالية، بدل الاكتفاء بالتحليل الوظيفي أو التجريبي.

2- إعادة تعريف المفاهيم التأسيسية (الوسيط، والرسالة، والجمهور، والتأثير) انطلاقًا من منطق "الاتصال الهجيني" الذي يجمع بين الإنسان والآلة، بين النص والخوارزم، وبين البث والتفاعل.

3- تبني مناهج هجينة تتقاطع فيها التحليلات الكيفية (مثل تحليل الخطاب الرقمي) مع أدوات قراءة البيانات الكبرى (Big Data) والخوارزميات. وإنشاء مرجعيات جديدة في تدريس علم الاتصال تقوم على الربط بين الفلسفة، والتقنية، والسوسيولوجيا النقدية، بعيدًا عن إعادة إنتاج النظريات الكلاسيكية دون مساءلة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- باشلار، غاستون، 2005، تكوين العقل العلمي، ترجمة: جورج طرابيشي، دار التنوير، ط3، بيروت.

2- باشلار، غاستون، 1997، الإبستمولوجيا، ترجمة: فؤاد كامل، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 227، الكويت.

3- وقيدي، محمد، 1999، مدخل إلى إبستيمولوجيا المعرفة العلمية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.

4- Miège Bernard, 1995, *L'information-communication*, Presses Universitaires de France (PUF), Paris.

5- Wolton Dominique, 1997, *Penser la communication*, Flammarion, Paris.

6- Wolton Dominique, 2000, *Internet et après ? Une théorie critique des nouveaux médias*, Flammarion, Paris.

7- McQuail Denis, 2010, *Mass Communication Theory*, Sage Publications, London.

8- Shannon Claude & Weaver Warren, 1949, *The Mathematical Theory of Communication*, University of Illinois Press, Urbana.

9- Katz Elihu & Lazarsfeld Paul, 1955, *Personal Influence: The Part Played by People in the Flow of Mass Communications*, Free Press, New York.

10- McLuhan Marshall, 1994, *Understanding Media: The Extensions of Man*, MIT Press, Cambridge.

11- Castells Manuel, 2001, *La galaxie Internet*, Fayard, Paris.

12- Castells Manuel, 2009, *Communication Power*, Oxford University Press, Oxford.

13- Habermas Jürgen, 1991, *The Structural Transformation of the Public Sphere*, MIT Press, Cambridge.

14- Gillespie Tarleton, 2018, *Custodians of the Internet: Platforms, Content Moderation, and the Hidden Decisions That Shape Social Media*, Yale University Press, New Haven.

15- Bauman Zygmunt, 2000, *Liquid Modernity*, Polity Press, Cambridge.